

دراسات عن مقدمة ابن خلدون للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصرى

[أخرج هذا الكتاب الفريد شيخ المرين الأستاذ أبو خلدون ساطع الحصرى ، وقدم له بهذه المقدمة الشارحة ، فرأينا أن ننقلها إلى القراء ليتبينوا منطق الأستاذ في تليل الأشياء ، ومنهج في تحرير هذا البحث .]

- ١ -

دراسات عن مقدمة ابن خلدون ...

أسطر هذه الكلمات ، وكأنى أسمع همس معترض يعترض على ، قائلاً :

دراسات عن مقدمة ابن خلدون ؟ ... ولماذا اخترت هذا الموضوع البتذل المعاد ؟ إن مقدمة ابن خلدون منتشرة بين أيدي جميع المستنيرين من الناطقين بالضاد . وقد كتب الدكتور طه حسين أطروحة عن « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » كما نشر الأستاذ عبد الله عنان كتاباً عن « ابن خلدون ، حياته وتراثه الفكرى » ... وقد نشر عدد غير قليل من المفكرين

ولا بد من كلمة هنا نوجهها إلى رؤساء تحرير مجلاتنا ... والكلمة رجاء مخلص نأمل أن يحققوه ، ونرجو أن يحققوه سريعاً وقبل أن يتصرم الصيف . وذلك ألا يسمحوا بنشر الفقر الحارة الساخنة التي ترد في سياق المناظرات والتي تهبط إلى مستوى الشتائم وتخرج عن دائرة الأدب ... ونحن بالطبع لا نمنى بدائرة الأدب دائرة الأخلاق

وبعد ... فلست أدري لماذا لا يعالج الأدباء شباباً وشيوخاً أعماسهم ؟ ولماذا لا يذكرون أن الحكومة تركتهم وشأنهم فلم يتخذ أى إجراء للترفيه عنهم ولم تدبر لهم مصيفاً ولم تبسح لهم القطارات والسيارات تنقلهم ولو إلى شواطئ المنزلة والبرلس وإدكوكوميوط ... وإن كان يسر الحكومة أن يشتغل الأدباء بأنفسهم عنها ، فلتشغلهم هم عن نفسها بالمفيد المجدى ... لتجندم تجنيداً إجبارياً ليجتثوا لها كل ما يهيمها البحث فيه من مسائل ما بعد الحرب ، وليدرسوا لها مشكلات الأمة وإصلاح البرامج والبطالة ومحاربة الفقر وهبوط المترانية إلى حالتها الطبيعية في السلم وإصلاح الكتابة العربية ...

وبعد أيضاً ... فهذا حديث من لغو الصيف ، نرجو ألا نلغو بحديث مثله .

وهي نشية

والكتاب ، عدداً لا بأس به من البحوث والفصول والمقالات عن ابن خلدون ومقدمة ابن خلدون ، في مختلف الكتب والجرائد والمجلات . فلا نعدو الحقيقة إذا قلنا : ما من مفكر ولا مؤرخ عربي ، حظى من كثرة الذكر وذبوع الصيت بما حظى به ابن خلدون . فما الفائدة من العودة إلى هذا الموضوع بمد جميع هذه الكتابات والنشرات ؟ ألم يكن من الأجدر بك ، ومن الأوفق لمصلحة قرائك ، أن تنتخب موضوعاً آخر أكثر جنة وطرافة من هذا الموضوع ؟

غير إنى لم أسلم بوجاهة مثل هذه الاعتراضات والملاحظات ؛ لأننى أعتقد بأن الطرافة في الدراسات لا تأتى من جودة الموضوع وحده ، بل قد تتولد من طرافة الطريقة والانجاء أيضاً . . . وأنا ، مع احترامى للكتب والمقالات والدراسات التي نشرت بالعربية عن ابن خلدون ومقدمة ابن خلدون ، أرى أنها ظلت بعيدة عن استيفاء البحث في هذا الموضوع الخصب الهام من نواحيه المختلفة ، فأعتقد بأن هناك حاجة ماسة إلى إكمال تلك الأبحاث والدراسات وإتمامها ؛ كما أن هناك ضرورة قصوى لإعادة النظر واستئناف البحث في معظم تلك الدراسات ، بطرق وأساليب أخرى وفق وجهات نظر جديدة

ومما يظهر هذه الحاجة بجلاء أعظم ، ويبرهن على هذه الضرورة بوضوح أتم ، أن الأبحاث والدراسات المنشورة عن ابن خلدون باللغة العربية ، قليلة جداً ، بالنسبة إلى ما نشر عنه في اللغات الأخرى ، ولا سيما في اللغات الأوربية . وهناك عدد غير قليل من الدراسات العلمية القيمة عن ابن خلدون وآرائه المختلفة ، لم تنقل بمد إلى العربية

ومن الغريب أن أهم الدراسات التي كتبت بأقلام بعض الشبان العرب أيضاً ، ظلت خارجة عن نطاق « المطبوعات العربية » إلى الآن ؟ فقد نشر الدكتور كامل عياد - من الشام - أطروحة باللغة الألمانية ، سنة ١٩٣٠ عن « نظرية ابن خلدون في التاريخ والاجتماع » ؛ كما نشر الدكتور صبحي الحمصاني - من بيروت - أطروحة باللغة الفرنسية ، سنة ١٩٣٢ ، عن « آراء ابن خلدون الاقتصادية » . . . وكنتنا الأطلروحتين لم تترجم إلى العربية ، بالرغم من مرور اثنتى عشرة سنة على نشر الأولى ، ومرور عشر سنوات على نشر الأخرى ؛ فاستفادة مستندبرى العرب من الأطروحة الأولى لا تزال موقوفة على معرفة الألمانية ،

كما أن الاستفادة من الثانية لا تزال تتطلب معرفة الفرنسية ...
وإنني أعتقد، لذلك، كل الاعتقاد بأن الحليل الثقف الحاضر
مقصر في أداء واجباته نحو هذا المفكر العربي العظيم تقصيراً كبيراً

إن هذا التقصير الكبير، لا يتجلى في « مسألة الدراسات »
نحسب، بل يظهر في « رداء الطبعات » أيضاً : فإن جميع
طبعات المقدمة التي صدرت عن مطابع القاهرة وبيروت وانتشرت
في جميع أنحاء العالم العربي، مشوبة بنواقص كثيرة وأغلاط فادحة
ذلك لأن جميع هذه الطبعات منقولة عن طبعة بولاق التي
قام بأغلبها الشيخ نصر المهوريني في القاهرة، قبل مدة
تزيد على ثمانية عقود من السنين . والشيخ المهوريني كان بعيداً
- بطبيعة ثقافته - عن إدراك المبادئ الأساسية التي يجب
مراعاتها في نشر مثل هذه المؤلفات القديمة .

فجميع الطبعات الشرقية تكاد تكون خالية من الشروح
والتعليقات : فإن الشروح القليلة المبعثرة فيها لم تجمت في محل
واحد ما ملأت أكثر من ثلاث صفحات . زد على ذلك
أن هذه الشروح قلما تخرج عن نطاق « الإيضاحات اللغوية »
فإنها لا تستهدف - على الغالب - شيئاً غير ذكر معاني بعض
الكلمات . هذا مع أن الترجمة التركيبية موشاة ببعض الإيضاحات
المطولة ؛ والترجمة الفرنسية مملوءة بمشآت ومثبات من الشروح
والتعليقات التي محوم حول المعلومات اللغوية والأدبية والجغرافية
والتاريخية الضرورية لفهم أبحاث المقدمة حق الفهم

ومما بلغت الأنظار في هذا الصدد، أن الطبعات المتداولة
مشوبة بعدد غير قليل من الأغلاط المطبعية التي تغير معنى
العبارات تارة، وتجردها من كل معنى معقول تارة أخرى،
وتقلب معناها رأساً على عقب في كثير من الأحوال

مثلاً : إن بعض الطبعات مسخت كلمة « اليقين » إلى
شكل « أئين » فابتدعت هذه العبارة الغربية : « قال كبيرهم
أفلاطون إن الإلهيات لا يوصل فيها إلى أئين » . كما أنها
حرفت « الحقيقة المتعلقة » وجعلتها « الحقيقة المتعلقة » ،
واستبدلت بعبارة « يلحق فوقها » عبارة « يلحق فوقها » .
إنها مسخت « العلوم الآلية » مسخاً غريباً، حولها إلى « العلوم
الإلهية » ؛ وحرفت تركيب « سن بكره » وجعلته « بين نكرة »
فجردته بذلك عن كل معنى معقول : كما حولت « عالم القردة »

إلى « عالم القدرة » ، فغيرت المعنى المقصود تغييراً هائلاً^(١)
وقد تطلعت بعض الطبعات بزيادة أداة « لا » في جملة
نافية، فقلبت معناها رأساً على عقب ؛ وبكس ذلك قد
حذفت كلمة « ليس » من عبارة أخرى، فجردتها من كل معنى
مفهوم، كما أنها أسقطت عدة كلمات من بعض العبارات، من
غير أن تنتبه إلى أن ذلك قد جعل العبارة عديمة المعنى^(٢)

ومن الأمور الغريبة أن الطبعات المصرية والشامية ناقصة
من حيث المتون والفصول أيضاً : فإذا قارنا إحدى هذه الطبعات
بطبعة باريس التي تمهدها المستشرق « كاتمرير » - في نفس السنة
التي كان قد أتم فيها الشيخ نصر المهوريني طبعة بولاق في مصر -
نجد أنه ينقص منها أحد عشر فصلاً كاملة من الفصول المهمة،
كما ينقص منها عدد غير قليل من الأبحاث والفقرات من
الفصول المختلفة . وإذا أحصينا مجموع صفحات هذه الفصول
والفقرات الناقصة نجدها تزيد على السنين

ومن الغريب أن طبعات مقدمة ابن خلدون المنشورة في العالم
العربي ظلت على هذه الحال من النقص المريب منذ مدة تزيد على
ثلاثة أرباع القرن . . . ومن الأغرب أن الأبحاث والدراسات
المنشورة بالعربية عن مقدمة ابن خلدون لم تنتبه إلى هذا النقص
فلم تعمل على تلافيه، ولم تلتفت الأنظار إليه إلى الآن

- ٢ -

هذا، وإنني أرى أن هناك قضية هامة أخرى تستحق
الملاحظة والعناية أكثر من جميع الأمور التي ذكرتها آنفاً :

إن الذين يطالعون مقدمة ابن خلدون يقرأونها عادة كما تقرأ
الكتب الحديثة، وينتقدونها بوجه عام كما تنتقد المؤلفات
المصرية . ومعظم الذين يكتبون عن المقدمة أيضاً يتبعون هذا

(١) راجعوا طبعة الطبعة الأدبية في بيروت والطبعة التجارية في
القاهرة : ص ٥١٧ ، ٣٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٩٦

إن الأغلاط الثلاثة الأخيرة موجودة في طبعة الطبعة البنية (٣٩٦ ،
٢٩ ، ٦٨) ، وفي طبعة مطبعة التقدم (ص ٤٤٦ ، ٣٢ ، ٧٧) أيضاً
وأما الفلطنان الأخيرتان فوجودتان في طبعة بولاق أيضاً

(٢) طبعة الطبعة الأدبية في بيروت والطبعة التجارية في القاهرة :
(ص - ١٦٨) « إن الحيوانات المنقرضة لا سافد (لا) إذا كانت

في ملكة الآدميين » والعبارة الصحيحة خالية من الأداة (لا)
(ص - ٤١٩) « والكمال في الصنائع إساق بكمال مطلق » والعبارة

الصحيحة هي : « والكمال في الصنائع إضافي ، وليس بكمال مطلق »
(ص - ٢٨) « حتى يكون مستوعباً لأسباب كل خبره » . فقد

سقط من هذه العبارة خمس كلمات ، وأما العبارة الصحيحة فهي : « حتى
يكون مستوعباً لأسباب كل حادث ، وابقاً على أصول كل خبره »

قد يبقى تحت تأثير مختلف الأخطاء النبذة في صحائف الكتاب ؛ والفكرة السبئية التي تستولى على ذهنه من جراء ذلك قد تؤثر على محاكته ، فتحول دون التفاته إلى الآراء القيمة المنتشرة في سائر أقسام الكتاب

إن أصول البحوث العلمية تتطلب من كل باحث يقدم على مطالعة كتاب قديم أن يتأمل في كل موضوع من مواضعه - وكل مسألة من مسأله - على حدة . وأن يعرف حق المعرفة بأن « خطورة الأخطاء » التي تلقى في الكتب القديمة ، لا يجوز أن توزن بالموازين الفكرية العصرية ، بل يجب أن تقدر بموازين تاريخية خاصة . ولا حاجة لبيان أن هذه الموازين الخاصة لا يمكن أن

تقرر إلا بتتبع « تطورات الفكر البشري » بوجه عام هذا مبدأ هام يجب ألا نهمله أبداً عند ما نقرأ وندرس مقدمة ابن خلدون . يجب علينا ألا ننسى أنه من رجال القرن الرابع عشر للنيلاذ ؛ كما يجب علينا أن نرجع إلى تاريخ العلوم والأفكار عند ما نقرأ كل فصل من فصوله ، ونتأمل كل رأي من آرائه ، ونستعرض ما كان يقول به المفكرون في هذا الصدد في العصر الذي عاش فيه وفي العمود التي أت بعده

- ٣ -

إني لم أقل بهذا المبدأ ولم أضع هذا الدستور تعصباً لابن خلدون ؛ بل قلت بهذا المبدأ لأنني وجدته سائداً في تاريخ العلوم والعلماء ؛ ومردت هذا الدستور لأنني رأيت رائد القوم على الدوم وأقول بلا تردد : لولا ذلك ، لما استطاع أحد من المفكرين والعلماء السالفين ، أن يحتفظ بمكانته العلمية والفكرية في هذا العصر ، بين تطور العلوم الهائل وتقدمها المستمر هذا أرسطو الذي يعد أكبر المفكرين الذين عرفتهم البشرية ، والذي يلقب لذلك « بالمعلم الأول » . هذا أرسطو نفسه ، قد وقع في أخطاء وأغلاط كثيرة وكبيرة جداً في مؤلفاته المختلفة ؛ فإذا أراد أحدنا أن يحميها ويجمعها ، استطاع أن يؤلف منها مجلداً ضخماً

إن بعض هذه الأخطاء والأغلاط كانت جوهرية خطيرة تتعلق بأسس العلوم نفسها كان أرسطو يقول ، مثلاً - في ميدان علوم الطبيعة - بنظرية العناصر الأربعة ، ويمتد كلاً من الماء والهواء والتراب والنار عنصراً من عناصر الأشياء ... ومن للملوم أن علمي الفيزياء

المنعنى نفسه ، ويعيلون إلى وزن الآراء الواردة فيها بموازين المكتسبات العلمية الحالية ، من غير أن يلتفتوا إلى عدد القرون التي تفصل بيننا وبين تاريخ كتابة المقدمة المذكورة ، في حين أن قيمة المؤلفات القديمة ، ومثلة المفكرين القدماء - في تاريخ العلوم والأفكار - لا يمكن أن تقدر على هذه الطريقة

ذلك لأن كل عالم ومفكر يشترك - بوجه عام - مع معاصريه في معظم آرائهم ، فيشاطرهم أكثر أخطأهم ، ولا يمتاز عنهم إلا في « بعض الآراء » التي يوفق إلى ابتكارها ، و « بعض المعلومات » التي يصل إلى اكتشافها

ولهذا السبب ، نرى أن منزلة الباحث والمفكر في « تاريخ العلوم والأفكار » لا تتمين بملاحظة « جميع الآراء الصائبة واخطأئة » المنبذة في كتاباته ومؤلفاته المختلفة ، بل تقدر بملاحظة « الآراء المبتكرة » التي يسمو بها على معاصريه ، و « الحقائق الجديدة » التي يضيفها إلى المكتسبات الفكرية البشرية ، و « الخدمات التي يقوم بها » بهذه الصورة ، في سبيل تقدم الأفكار والعلوم ... كل ذلك بقطع النظر عن الآراء الخاطئة التي يبقى فيها مشتركاً مع معاصريه بطبيعة الحال

إن عدم ملاحظة هذا الدستور الأساسي في دراسة المفكرين والعلماء القدماء ، يحول دون تقدير منزلتهم العلمية حق تقديرها . ومعاذير ذلك تكتسب خطورة خاصة عندما يعود الأمر إلى عظماء المفكرين الذين يكونون في منزلة ابن خلدون ، وإلى أمهات المؤلفات التي تكون على شاكلة مقدمته المشهورة ؛ لأن مقدمة ابن خلدون من المؤلفات الجامعة التي تنطرق إلى عدد كبير من المسائل والمواضيع . إنها تتناول بالبحث مسائل كثيرة ومتنوعة جداً ، من الديانة إلى التجارة ، من النبوة إلى الطبابة ، من الرؤيا إلى التربية ، من السياسة إلى النجامة ، من أوزان الشعر إلى عمران المدن ، من مبادئ الموسيقى إلى أساليب الحرب ، من موارد الدولة إلى أصناف العلوم . وخلاصة القول أن كل ما له علاقة بالاجتماع الإنساني والعمران البشري يأخذ نصيباً من بحوث المقدمة ... فلا ينتظر من مؤلفها أن يكون مبتكراً ومصيباً في جميع هذه المواضيع المتنوعة ، بل لا بد أن يكون ناقلاً لآراء معاصريه في معظم تلك المسائل والمواضيع

فإذا قرأ القارئ مقدمة ابن خلدون من غير أن يراعي هذا الدستور ، فقد يعود بفكرة خاطئة تماماً عنها وعن مؤلفها ؛ لأنه

والكيمياء ، قد قاما على إنكار هذه النظرية من أساسها

وكان يقول - في ساحة علم الحياة - بنظرية « التناسل اللانفاني » ، ويعتقد بأن الديدان والحشرات تتولد من تلقاء نفسها ، من الطين والجيف . ومن العلوم أن علم الحياة الحالي ، قد برهن على بطلان هذه النظرية برهنة قاطعة

وكان أرسطو يقول - في ساحة الاجتماعيات - بضرورة الرق ، ويعتقد بأن الاسترقاق من ضرورات الحياة الاجتماعية ؛ وكان يبلل اعتقاده هذا ، بقوله « إن بعض الناس خلقوا ليكونوا عبيداً » ؛ حتى كانت يرى أن « النزو للحصول على العبيد » مشروع بقدر « الصيد لاقتناص الحيوانات » ... ومن العلوم أن تطورات الحياة الاجتماعية سارت دائماً على أساس إنكار هذا الرأي بوجه حاسم بات

وزيادة على كل ذلك ، فإن بعض الآراء التي قال بها أرسطو كانت من نوع السفطات والمغالطات . فقد قال - مثلاً - : « إن الخط المستقيم لا يمكن أن يكون كاملاً ، بوجه من الوجوه ، لأن هذا الخط المستقيم إذا كان غير مثناه كان غير كامل ، إذ أن السكالم في الخط لا يتم إلا عندما يكون له شكل مرسوم بوضوح . وأما إذا كان الخط المستقيم المذكور متناهياً ، فلا يكون كاملاً أيضاً ؛ لأنه يبقى في هذه الحالة ، ما هو خارج عنه ، بطبيعة الأمر ... » ومن الواضح أن كل ذلك من لغو الكلام ، وهو يدل على المغالطة في البرهنة والبيان

فإذا كان أرسطو لا يزال يتمتع بمنزلة ممتازة ومكانة خارقة ، في تاريخ العلوم والأفكار ، فما ذلك إلا لأن التاريخ المذكور يراعى على الدوام المبدأ الذي ذكرته آنفاً

وما قلته عن أرسطو في هذا الصدد ، يصح في غيره من العلماء والفكرين أيضاً . فليس بين هؤلاء - من سقراط إلى كونت ، ومن بقراط إلى فرويد - من يعد عظيمًا لأنه لم يخطئ في آرائه وكتابه قط ؛ بل إنهم يعدون من العظماء ، على رغم الأخطاء التي وقعوا فيها والأغلاط التي قالوا بها

- ٤ -

وما يجب ملاحظته في هذا الصدد ، أن موقفنا - نحن الناطقين بالضاد - تجاه مقدمة ابن خلدون يختلف بطبيعته عن مواقفنا تجاه مؤلفات أمثاله من الفريبيين . ذلك لأننا لا نطلع - عادة - على آراء القدماء من الفريبيين إلا من خلال بعض

المفتظفات والدراسات ، فنقوم بأن كل ما قاله هؤلاء وكثيره كان على ذلك الطراز . مع أن تلك الفتظفات والدراسات ، تستهدف - بوجه عام - إظهار منزلتهم العلمية ، فلا تحتوي في حقيقة الأمر إلا على الجوهر الهام ، والزبدة المنتقاة من آرائهم وكتاباتهم الأصلية . بينما نحن نطلع على ما قاله ابن خلدون من قراءة مقدمته مباشرة ، ونحيط علماً بكل ما جاء فيها من غث وسمين . . .

فالمقارنة التي تحدث في أذهاننا بهذه الصورة ، بين ابن خلدون وبين أمثاله الفريبيين ، تكون بعيدة عن الحق والحقيقة ، بطبيعة الأمر . إن مثلنا في مثل هذه المقارنات كمثل من يريد أن يقوم بمقارنة بين الناجم المختلفة ، فيقدم على الموازنة بين الفلز الطبيعي الموجود في أحدها ، وبين المادن الصافية والجواهر اللامعة المستخرجة من غيرها ... من غير أن ينتبه إلى أن تلك المادن والجواهر أيضاً كانت ممزوجة ومخلوطة بمواد ترابية وحجرية خسيمة ، وإنها لم تظهر بمظهرها الحالي إلا بعد تصفيتها من النفايات ؛ كما أن الفلز الطبيعي الموجود في النجم الأول أيضاً يحتوي على جوهر ثمين - قد يهر الأبصار - مثل تلك الجواهر ، بل أكثر منها ، إذا ما عولج وسقي بشلها

من البديهي أن المقارنات يجب أن تجرى تحت شروط متساوية : فعلياً إما أن تقارن الفلز الطبيعي بالفلز الطبيعي ، وإما أن تقارن المعدن المستخرج والمصنق بالمعدن المستخرج والمصنق . أما مقارنة الفلز الطبيعي المستخرج من منجم ما ، بالمعدن المستحصلة من منجم آخر ، فما لا يتفق مع مقتضيات العقل والنطق ، بوجه من الوجوه

فيجب علينا أن نتجنب سلوك مثل هذه الطرق في دراسة ابن خلدون . يجوز لنا أن تقارن المقدمة بكتاب من أمثاله مقارنة شاملة تامة ، كما يحق لنا أن تقارن الآراء الثمينة المستخرجة منها بما استخرج من أمثاله . وأما المقارنة بين المقدمة ببيتها المجموعة وبين الآراء القيمة المستخرجة من الكتب الماثلة لها ، فما لا يجوز أبداً

إن المقالات التالية ، ترمي قبل كل شيء إلى تطبيق هذا المبدأ في دراسة مقدمة ابن خلدون ، وإظهار منزلة مؤلفها العظيم ، على هذا الأساس التوحيدي (بيروت)

أبو خلدون